اللُّغة الشِّعْرِيّة عندَ بَدَوِيِّ الجَبَل

البيان تُرْجُمَانُ القلوبِ ورَوْضُ النُّفوسِ، وبه استولى يوسفُ عليه السَّلام على مِصْرَ؛ فإنَّ العزيزَ لـمَّا رَأى فصاحة لسانِهِ وحُسْنَ بيانِهِ أَعْلَى مكانَهُ، وأَعْظَمَ شانَهُ. وقد قيل: إنَّ البيانَ قاضٍ يحكم بينَ الخصوم، وضياءٌ يجلو الظُّلَمَ، وحاجةُ النّاسِ إلى موادِّه كحاجتهم إلى الغذاء والماءِ. وقال الأَعْوَرُ الشَّنِّيُّ أَوْ غَيْرُهُ[1]:

لسانُ الفتى نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤَادُهُ ... ولم يَبْقَ إلَّا صورةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

وما قولُك في نِعْمَةٍ كانت أوَّل نعمةٍ امتنَّ اللهُ بها على خَلْقِه: ﴿الرَّحمن عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسانَ * عَلَّمَه البيانَ﴾ [سورة الرّحمن: ١ – ٤].

فالبيان يظهر ما يُضمر في الجَنَانِ، وهو حاكم يفصل بالخطاب، وبه يُنيرُ الحقّ، بل ربَّما تلعَّب به الصّيارفة والحُذَّاق، فصَوَّرُوا الباطل في صورة الحقّ، ففي الحديث: «ولعلَّ بعضكم يكونُ ألحنَ بحُجَّتِهِ من بعضٍ، فأَقْضي له على نحو ما سمعت»، وقد قال ابن الرُّوميّ:

في زُخْرُفِ القولِ تزيينٌ لباطلِهِ ... والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبيرِ

تقولُ: هٰذا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمدحُهُ ... وإنْ تَعِبْ قُلْتَ: ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ

مَدْحًا وذمًّا وما جَاوَزْتَ وَصْفَهما ... حُسْنُ البيانِ يُري الظَّلْماءَ كالنُّورِ

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٥٤.

Generated by CamScanner

وليس أبرع القُضاة وأَوْقَدُهم ذكاءً بقادرٍ على إدانة النابغة إذا سَمِعَه يقول:

حلفتُ فلم أترك لنَفْسِك ريبةً ... وليْسَ وَرَاءَ الله للمرءِ مَذْهَبُ

وبدويُّ الجبل محمَّد سليمان الأحمد (١٩٠٣–١٩٨١م) واحدٌ مِمَّنْ بَسَطَ اللهُ لهم في البيان بَسْطًا، وبَحْبَحَ له رِزْقَهُ مِنْ مَوْهبة القول الدَّفّاق وبليغ الكلام، ودَمَّثَ له الدَّرْبَ، ووَطَّأَ له الأَكْنَاف، فجاء شعرُهُ مثلَ الخمرِ تُحْدِثُ عجائب في النفس وبدائع في الرُّوح.

وقد تَدَفَّقَتْ أقلامُ الكَتَبَةِ وشهاداتُ المُنْصفين تُثْني على شعر البدويِّ الثَّناءَ الجمَّ، وتنصُّ على السِّحرِ الذي يَغْشَاهُ، والفِتْنَةِ التي يُحدثُها في قلوبِ سامعيه.

فقد قال شفيق جبري[1]: «إنَّ بدويّ الجبل شاعرٌ لا يُدانيه شاعر من شعراء هٰذا العصر. في شعر البدويّ ديباجة الشريف الرّضيّ، والشريف الرّضيّ أشعر شعراء قريش، لا، بل هو شاعر قريش».

وقال أحمد شوقي: «ده شاعرٌ أَفْهَمُهُ».

وقال بشارة الخوري: «إنَّ الشعراءَ في سورية كأصابع الكفّ الواحدة عددًا وحجمًا، وبدويّ الجبل إحدى هٰذه الأصابع، في نفسه شاعران إذا انتصر أحدهما للقديم اعترضه نصير الجديد، فما خرجت القصيدةُ من نفسه إلا وعليها طابع الشّاعرين».

---

(١) بدويّ الجبل حكاية شاعر ٨، ٢٨، ٤٣.

Generated by CamScanner

وقال عمر أبو ريشة:« ديباجةٌ مُشْرِقَةٌ، وأسلوبٌ متينٌ، وإحساس مرهف، يقف في الصّفّ الأوّل من شعراءِ العالم العربيّ».

وقال شاكر مصطفى[1]: «هٰذا سيِّد شعراء العرب دون منازع. إنَّه الحُجَّةُ الواحدةُ الباقية في يد المدرسة الكلاسيكية. نسيج البحتريّ الموشّى لم يكن له من مكان في هٰذا العصر لولاه. وهو يجرُّ وراءَه ربعَ قرنٍ من أمجاد القافية. كل بيت عندَه كالزَّهرة الأنيقةِ، كالكأس الـمُتْرَعَةِ، فيها اللون والتَّويج النَّضيد، وفيها العِطْرُ والنشوة الأخيرة. سألته مرّةً: أنَّى لك الشّعر؟ فقال: من بيت أبي. إنَّ أعجب ما فيه لغةٌ مِطْواعٌ تمنحه ما يشاء من اللَّفْظِ الأنيق حيث يشاء، ومعنًى في نعومة الحُلُمِ الرَّيَّان».

وقال محمَّد مهديّ الجواهريّ[2]: «في العراق لم أحسَّ بمنافسةِ أحدٍ. لقد كنت أُريد أَنْ أَلحقَ بالشعراء وأنا صغير، وغطّيْتُ عليهم وأنا كبير. أمَّا في العالم العربيّ فربّما كان شوقي من النّاحية الفنّيّة، وليس من النّاحية النَّفْسيّة أو السياسيّة أو ناحية الموهبة. أمَّا بدويّ الجبل فقد أَحْسَسْتُ بضيقٍ مِن وجوده، وحسبتُ له حسابًا».

وقال شكيب الجابريّ: «شاعرٌ فَحْلٌ ديباجتُهُ صُنِعَتْ من مخملٍ عريق لا يُدانيه أيُّ قماشٍ آخر».

ولو ذهب المرء يستقصي مثل هٰذه الشهادات لكدَّه ذلك، ولفاته أكثرُ مِمَّا قيَّده، ولا زلتُ أذكرُ أيَّامَ كنت طالبًا ترنُّمَ أستاذي شيخِ العربيّة في بلاد

---

(١) بدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ٣٩٠.

(٢) بدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ٣٩١.

Generated by CamScanner

الشّام محمّد أحمد الدّالي بقصيدة البدويّ «خالقة»، وكان بعض أبياتها يُوقد فتنةً يصطلي بها قلبُه[1]:

مِنْ نُعْمَيَاتِكِ لي أَلْفٌ مُنَوَّعَةٌ ... وكلُّ واحدةٍ دُنيا مِنَ النُّورِ

أُخادِعُ النَّوْمَ إِشفاقًا على حُلُمٍ ... حانٍ على الشَّفَةِ اللَّمْيَاءِ مَخْمُورِ

وزار طَيْفُكِ أَجْفَاني فعَطَّرَها ... يا لَلطُّيُوفِ الغَرِيْرَاتِ المَعَاطِيْرِ

وكان يقول عقب إنشاده بقلب ممتلئ وروح متوهّجة:

«البدويّ شاعر العصر غير مُدَافَعٍ ولا منازع».

ومِمَّا يُلْحَظُ على تلك الشهادات أنَّها جاءت مِن معاصرين ومِن شعراء، والمعاصرة التي يُذكر أنَّها حِجاب لم تمنع أولي النُّهى مِن أَنْ يُدْلُوا بدلائهم مُتْرَعَةً بالحقِّ، ولا يخفى ما يكونُ بين أبناء الصَّنعة الواحدة من تقارص وتنافس ربَّما أدَّاهم إلى أَنْ يتجانفوا عن الحقّ، ومع هٰذا لم يَتَوَانَ الشعراء المعاصرون للبدويِّ عن النَّصِّ على فَضْلِهِ وشاعريّتِهِ، وقد قال السَّرِّيُّ الرَّفَّاءُ:

ومَلِيْحَةٍ شَهِدَتْ لها ضَرَّاتُها ... والْفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأَعْدَاءُ

وأبوه سُليمان الأحمد علّامة الجبل في عصره أدبًا ولغةً وفقهًا وفلسفة، وأحد مؤسّسي المجمع العلْميّ العربيّ بدمشق، وكان يُلَقَّبُ بالقاموس الحيِّ لغزارة حفظه وقوّة استدعائِهِ لمعارف عصره، فقد كان حُفَظَةً لقلائد الشّعر العربيّ الزّاهي، وأنّى للكرى أَنْ يُساكنَ مُقْلتيه قبل أَنْ يَقْرأَ أَوْ يُقْرَأَ له، وقد

(١) ديوانه ٥١٧.

Generated by CamScanner

كانت قصائدُ البُحتريّ سلاسلُ الذَّهَبِ وروائعُ أبي الطَّيِّب ماثلةً في صدره، وكان بيته كعبةً يؤمُّها قُصَّادُه من طلبة العلْم ومُختَلِفَةِ الرَّأي.

أذكى الشيخ سُليمان في بنيه حبَّ المعرفة، وزرع فيهم غريزةَ التنقيب والبحث الدؤوب، حتّى رُوِيَ أنَّ بعضَهم رُبَّما عافَ طعامًا أوْ جافى نومًا كي يُنَقِّبَ عن بيتٍ مِنَ الشعر، أوْ يلتمسَ مَعْنَى كلمةٍ احتدم خِلافٌ حول دلالتها.

وبلغ مِنْ إجلال الشيخ سُليمان للغة القرآن أنَّه حَمَلَ أبناءَه على التكلُّم بالعربيَّة الفصيحة في كلِّ حين، واستحثَّهم على حِفْظِ ما يستجيدُه من القصائد والمقطوعات.

في هٰذه البيئة الزّخّارة بالعلْم الفيّاضة بالعربيّة الصّافية نَشَأَ البدويّ، فقرأ على أبيه دواوين المتنبِّي والبحتري وأبي تمّام ومهيار الدّيلميّ والرّضيّ، واطَّلع على الأغاني، والأمالي، وخزانة الأدب، ووفيات الأعيان، ومروج الذّهب، ومقدّمة ابن خلدون، وتفسير الطّبريّ، والكشّاف، حتّى ازدحمت معارف هٰذه الكتب في صدره، وسيظهر صداها وبريقها فيما قال بعدُ.

قالت فتاة غسّان[1]: «انكبّ على دراسة الأغاني وراح يقرأ ويحفظ، وأحبّ هٰذا الكتاب النَّفيس، كما أحبَّ قراءة الشعر أنّى ثَقِفَه، فكان يعبّ من مكتبة أبيه حينًا، ومن صدره أحيانًا، أُغرم بدواوين الشريف الرّضيّ، والمتنبِّي، والبحتريّ، وأبي تمّام، والحلّيّ، وأبي العلاء، وأبي نواس، وترجمة رباعيات الخيّام للشاعر أحمد الصّافي النّجفيّ. أحبَّ قراءة الكتب اللُّغويَّة كالخصائص لابن جنّي، وفقه اللُّغة للثعالبيّ، والجمهرة لابن دُريد، والصاحبيّ لابن فارس. وقرأ أكثر كتب النَّحْو

(١) بدويّ الجبل حكاية شاعر ٢٦.

Generated by CamScanner

والصَّرْف: كتاب سيبويه، ومغني اللّبيب، ومُلْحة الإعراب للحريري، وألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيل عليها».

واختلطت روح العلم مع أبيه مع طبيعة ساحرة خلّابة وتراثٍ عربيّ حاضر ماثل، فتفجّرت الأنشودةُ الإلهيّةُ في روح محمَّد، فجعل الشعر ينداحُ مِنْ رَوْعِهِ كما ينداحُ ماءُ عينٍ في الجبل عَذْبًا سلسبيلًا يسير أَنَّى شاء لا يتأبَّى عليه شَيْءٌ.

ومِن لطائف ما يُروى[1] عنه مِمَّا يدلّ على خفّة الروح وبداهة الجواب أنّه ربّما لذع من لا يُقيم لسانَهُ في النَّحْوِ:

ومَنْ لَيْسَ نَحْويًّا ولَيْسَ بمُعْـرِبٍ ... فلَـيْسَ لَـهُ إلّا لِـجَامٌ وبَرْدَعَـهْ

وقال:

النَّحْـوُ زَيْـنٌ للفتـى ... يزينُـه حيـثُ أَتـى

مَـنْ لم يكـنْ يفهمُـه ... فواجـبٌ أَنْ يـسكتا

إذن نحن أمام ثقافة عربيّة صِرفة لا تشوبها شائبة تكدِّر صَفْوَها، ولا تبهرجُها ألوان أجنبيّة تشوِّشُ انسجامها، وبلغتْ هٰذه المشاربُ من نفسه مبلغًا حتّى كأنّك في مواضع من شعره ترى المتنبّي يطلُّ عليك من شُرُفاته!

وقد سُئل البدويُّ[2] عن تشبيه قُرَّاء الشّعر له بالمتنبّي: ما وجه الشبه بينك وبينه؟

---

(١) بدويّ الجبل حكاية شاعر ٢٤، ٢٥.

(٢) بدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ١٢٧.

Generated by CamScanner

فقال: أنا لستُ متنبّي القرن العشرين. لكلّ شاعرٍ شخصيّةٌ، فشخصيّة المتنبّي متفرّدة مميّزة، ولكلّ شاعرٍ أصيلٍ شخصيّةٌ متفرّدةٌ متميّزةٌ، فهمت ما هو وجه الشبه بين الشّاعرين.

وكثرة الألقاب التي أُطلقت على بدويّ الجبل مُنْبِئَةٌ عن منزلته الفنّيّة الرّفيعة، فكثرةُ الأسماءِ تدلُّ على شَرَفِ المسمّى، فأوّل هاتيك الألقاب ما أطلقه عليه الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة «ألف باء» الدمشقيّة حين وقّع قصيدته في المناضل الأيرلندي «ماك سويني» بـ «بدوي الجبل»، ولمّا سأله البدويّ عن فعله هٰذا أجاب أنَّ هٰذا التوقيع المستعار يحملُهم على أنْ يقرؤوا الشعر للشعر، وأنْ يتساءلوا: منذا يكون هٰذا الشّاعِرُ المجيد؟ وأنت في ديباجتك بداوة وأنت ابن الجبل!

وكان أكرم زعيتر[1] رصيفُه وصديقُ عمره قد أطلق عليه سنة ١٩٤٦ لقب شاعر العربيّة، وذكر أنّه حين باح بهٰذا اللقب أمام إسعاف النّشاشيبي أديب العربيّة تطلّق وَجْهُهُ غبطةً ورِضًا وقال: «البدويّ أَجْدَرُ شاعرٍ بهٰذا اللّقب».

انطلق البدويُّ إلى محاريب الشّعر بموهبة مختلطة بروحه ووجدانه وبزادٍ من الشعر العربي القديم وافر، فجاء شعره أوّلُه مِثْلَ آخرِهِ نُضْجًا لا تفاوت فيه، فحين سُئِلَت الأديبة عفيفة صعب عن رأيها بشعر بدوي الجبل قالت[2]: «عهدنا بكلّ شاعر أنْ يتدرّج إلى النُّبوغ في الشّعر تدرُّجًا، فهو يقولُ أوّلًا، فيُسْمَعُ ويُشَجَّعُ، ثمّ يتقدّم إلى الإنشاد فيُقْبَلُ في المحفل والمجمع، ثمّ يجري

---

(١) مقدمة ديوان البدويّ ٢١.

(٢) بدويّ الجبل حكاية شاعر ٢٢.

Generated by CamScanner

في الحلبة، فيَسْبِقُ ويبرع. أمَّا بدويّ الجبل هٰذا فقد تمرَّدت عبقريّته على هٰذا النَّاموس، ناموس التَّدرُّج، رأيناه في السابقين، ومعدودًا على حداثة سنِّه بين الفحول المقرَّبين. فكأنَّ الاستعدادَ الفطريَّ في مجموع قومِهِ تجمّع في والده، ثمّ ظهر فَجْأَةً في نجله السَّيِّد محمَّد».

وقد ألمع أكرم زعيتر[1] إلى هٰذه القضية في شعر البدويّ، فقد كان النّقّاد القدماء يُطلقون على من يتعاطى الشّعر قبل امتلاك أسبابه: الـمُقَرْزِم، وأمَّا البدويّ فما عرفه الشعر قِرْزامًا، فلا تفاوت في بواكير شعره وما تأخَّر منه، فلهٰذا قال بشارة الخوريّ: «شعر البدويّ أَرْجَحُ مِن عُمره»، وقال عبد القادر المغربيّ: «إنَّه الشّاعر الذي تمرَّد على ناموس التدرُّج».

والتدرُّج من سُنَّة الأشياء في سعيها إلى النُّضْج والكمال، لم يكن بمنأًى عنه كبار الشعراء، فهٰذا الأصمعيُّ يصف شعر أبي العتاهية والتفاوت الذي فيه: «إنَّهُ كساحة الملوك يقع فيه الخَزَفُ والذَّهب». قال زعيتر: ولو رأى الأصمعيّ شعر البدويّ لقال: هٰذه ساحةٌ لا خَزَفَ فيها؛ إنَّها سوقُ الذهب واللؤلؤ والمرجان.

ولا غرو فالشعر مثل مغاص اللُّؤلؤ الشعراء فيه يتفاوتون على قدر ما أُتيح لهم من سموِّ المواهب ويقظة الرُّوح ورقّة الشّعور ووقدة الحسّ، وصاحبنا البدويّ قد بلغ من كلّ أولئك حَظًّا قلّما ظفر به معاصروه، وتمخَّضت قريحتُه في غَيْسَانِ صِباهُ وحُمَيَّا شبابه ما عَجَزَتْ عنه قرائحُ غيرِهِ وقد بلغوا الأصيل من أعمارهم.

---

(١) مقدّمة ديوان البدويّ ٢٦.

Generated by CamScanner

ما هي مصادر اللغة في شعر البدوي؟ بدون شواهد تعداد فقط

مصادر اللُّغة في شعر البدويّ

١- البيت الذي تَرَعْرَعَ فيه البدويّ:

حيثُ تَشْمَخُ الأشجارُ، وتفيضُ السَّماءُ بدموعها بسخاءٍ تبعثُ الطّبيعةُ عِطْرَها وأنغامَها في هدوءٍ وطمأنينةٍ في قرية ديفة ١٩٠٣ = وُلد محمَّدٌ الذي سيكتب الأدبُ العربيُّ في معابده اسمَه بحروفٍ من نور.

يتحدَّر الرَّجل مِنْ أَصلاب الغساسنة الذين نصّ على انتسابه إِليهم:

وغَسَّانُ العُلا قومي ولكنْ ... إِلى آدابك الغُرِّ انتسابي

وقال:

مَلِيْحَةَ الدَّلِّ مِنْ غَسَّانَ لا بَلِيَتْ ... شَمَائِلُ الصِّيْدِ مِنْ أَقْيَالِ غَسَّانِ

على أنَّ كلّ ذلك السِّحر لم يكنْ ليسلمَ مِنْ أَذًى يشوبُهُ، أَوْ قلقٍ يُشَتِّتُهُ، فقد عصفتْ بقلبه حوادثُ جسامٌ مِن جرَّاءِ ما كانت تشهدُه البلاد آنذاك من بغي الاستعمار الفرنسيّ، وما اعترى السياسة من مألوف أمرها، وهو أنَّ الحقيقة الخالدة فيها أنَّه لا حقيقة، وأَنَّ الثابتَ فيها التغيُّرُ المستمرُّ.

قال العقَّاد: غير مطلوب

عَفْوَكَ اللّهمّ لا خُلْدَ هُنا ... ومتى كان خلودٌ في قيودِ

سيظلُّ الخُلْدُ وَسْوَاسَ المُنى ... وصدى اللّيلِ وأحلامَ الرُّقودِ

Generated by CamScanner

البيئة الصافية والموهبة الفذّة والوجع الذي انضاف إليهما حمل البدويّ على التغريد بأجملِ ما يسخو به أنين الألم، فروحه التي تتبدّد صبابةً أثرت الأدب العربي بقصائدَ عُيُونِ غُرَرٍ باقياتٍ على الدَّهر، وما أكْثَرَ الأطيارَ الّتي تُؤْثِرُ الصَّمْتَ، حتى إذا فُقِئَتْ إحدى عَيْنَيْهَا صدحت بأروعِ ما يكون الصُّداح.

قال[1]:

وَما حَاجَتِي للكائِنَاتِ بِأَسْرِهَا ... وفي نَفْسِيَ الدُّنْيَا وفي نَفْسِيَ الدَّهْرُ

ونَفْسِي لَوَ انَّ الجَمْرَ مَسَّ إبَاءَهَا ... على بِشْرِهَا الرَّيَّانِ لاحْتَرَقَ الجَمْرُ

هٰذا بيت البدويّ الذي جعل منه – كما يقول بودلير – طائرًا حين يحطّ على الأرض يثقلُه جناحاه اللَّذَان لا يلبثان أَنْ يحملاه على التحليق في سمائه العُلْويَّة.

٢ – القرآن الكريم والحديث الشّريف ونهج البلاغة:

تعلّم الفتى محمَّد القرآن الكريم على شيخٍ – هو الشيخ عبد اللطيف شريف – في قرية عين التينة بقراءة حفصٍ عن عاصم، واستظهر غير قليل من آيِهِ البيِّنات، ولا ريب أنَّ لهٰذا أثرًا في صقل بيانه وصفاء شعره وإشراقة لغته.

قال بدويّ الجبل[2]: مطلوب أقوال بدوي الجبل

بدأت القراءة بالقرآن الكريم، ثمّ قرأت على أبي رضي الله عنه برغبةٍ منه الحديث الشّريف ونهج البلاغة لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وهو غاية الغايات في البيان، ثمّ قرأت على أبي بعد ذلك اللزوميات لأبي العلاءِ

(١) ديوانه ٣١٩، ٣٢٠.

(٢) بدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ١٢٥.

Generated by CamScanner

المعرّيّ، وكان مُعْجبًا بها، وله شرح على اللزوميات لم يُكتب في اللُّغة العربيّة من طرازه عن أبي العلاء.

كان أثناء قراءتي يفسِّر لي المفرداتِ والمعانيَ، ويلفت نظري إلى جمال الصّور، ويُصَحِّحُ لي كلَّ خطأ أُخْطِئُهُ في التلاوة، ولا سيّما عينِ المضارع. فلوالدي رضي الله عنه الفضل الأكبر في متانة لغتي العربيّة، وتفهُّمي ألوانَ البلاغة، وغناي بالمفردات، ومعرفتي بالموقع الذي تحلو فيه المفردةُ.

قال بدوي الجبل[1]:

نشأت في بيت علم وفقه، فتأثّرتُ أوّل ما تأثّرت بالقرآن الكريم الذي لا يمكن أنْ تُشْرِقَ ديباجة الأديب إلّا بالإدمان على تلاوته. ثمّ تأثّرت بالحديث الشريف وبخطب الخلفاء الراشدين، ولا سيّما خطب علي بن أبي طالب، كما تأثّرتُ بخطب الحجّاج وزعماء الخوارج.

وقد سُئل البدويّ مرّةً[2]: ما الذي مكّنك من البلاغة؟ فتمثّل ما قاله عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمّد[3]: حفظ كلام الأصلع!

يعني عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان البدويّ إذا أحاط بما يقرأ، وأتقنه، وجد نفسه في شَغَفٍ لرواية ما حَفِظَ، وإذا لقي أقرانه ورصفاءَه حدّثهم بما فهم، وأَنْشَدَهُم ما حفظ، لكأنَّ ما حفظ من قصائد يجيش في صدره، فلا يَهْدَأُ من فَوَرَانِهِ وازدحامه إلّا

(١) بدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ١٠.

(٢) بدويّ الجبل حكاية شاعر ٢٧.

(٣) ثمار القلوب ١/ ١٩٧.

Generated by CamScanner

أَنْ يجد أُذُنًا صاغية وقلبًا واعيًا حتى إذا أنشد استشفى ونَقَعَ غُلَّةَ ما في نفسه. يُشبه أنْ يكون الإنشاد صلاةً يرتِّلُها ويترنَّم بنصوصها حتّى إذا فاء إلى نفسه في خلواته سكن رَوْعُهُ.

٣- الطَّبيعة الحيَّة:

ولَدت الطَّبيعة الحيَّة لديه مُعْجمًا طافحًا بالألفاظ مُترعًا بالصور والمجاز، فالبلبل والأطيار والماء والحفيف والشوك والأَيك والظّل والجمر والكروم والرُّبا والسماء والجنان والعطور والفجر والنور، كلّ أولئك ألفاظ انتشرت في شعره انتشار النّسيم في البُستان:

لم أَضِقْ بالهُمُوْم ذَرْعًا وهَلْ ... ضَاقَ بشتّى عُطُورِهِ البُسْتانُ

وبلغ قاموس الطّبيعة هٰذا مِنْ نَفْسِه أَنْ سخّره في غير مظانّه من أغراض الشّعر، فقال يهجو:

جَنَّةُ الشَّوْكِ لا تُخَادِعُك رُبَاها ... ففي كلِّ أَيْكَةٍ ثُعْبَانُ

٤- الحضارة الجديدة:

عاش البدويّ أضواء الحضارة الجديدة بكلّ ما لَمَعَ فيها مِنْ قناديلَ وحِرَابٍ وألوانٍ، ومغترباته وتقلُّبه في العالمين في حواضر العالم: فيينا وجنيف وروما والأستانة وسواها أثرى الحركة والمجاز في المفردات والتراكيب، فالنَّهْدُ قارورة عطر، والله يتأنق ليخلُقَ، والثّغر يحنُّ إلى ريقه، والخدّان لا يُشتهيان إلّا لأنّه ترك أوزاره عليهما، والعينان لا تُسْكِرَانِ إلّا لأنّه سكب فيهما أسراره، والأثام خَفِراتٌ بِيْضٌ وكأنّها أُقْحُوانَاتٌ مُنَضَّرةٌ[1]:

---

(١) ديوانه ٥١٩.

Generated by CamScanner

آنامُكِ الخَفِرَاتُ البِيْضُ لـو جُلِيَـتْ لطُوْرِ موسى لنَدَّت ذروةَ الطُّـورِ

كأنَّهـا أُقْحُوانَـاتٌ مُنَـضَّرَةٌ بِمُخْصِبٍ عَبِقِ الرَّيْحانِ مَمْطُورِ

فانظر إلى الخفرات البِيْضِ في قول الطِّرِمَّاح: غير مطلوب

لعمرُك إنّي يـومَ ألطـمُ وَجْهَهـا عـلى نائبـاتِ الـدَّهْرِ جِـدُّ لئـيمِ

مِنَ الخَفِرَاتِ البِيْضِ لم يُـرَ مِثْلُهـا شـفاءً لـذي بَـثٍّ ولا لـسقيمِ

كيف انتزعه البدويّ من سياقه، وخلع عليه لَبُوسًا جديدًا، وعَرَجَ به إلى سماوات من الجمال، وهَدْهَدَهُ حتّى جعل الخطايا حَيِّيَةً نقيَّةً طَهُورًا لو تجلّلها الجبل الطّاهر المقدّس لازداد طُهْرًا على طُهْرٍ، ولظَلّ الماء يقطرُ فوق ماءٍ!!

وليستْ حوانيتُ العطّارين ولا أقمشةُ التّجّار ولا حدائقُ قرطبة بأَغنى من شعر البدويّ صورًا ملوَّنةً وأخيلةً مطرَّزة[1]: حفظ أربعة أبيات

في مُقْلَتَيْـكِ سـماواتٌ يُهَدْهِـدُهَا مِنْ أَشْقَرِ النُّـورِ أَصْـفاهُ وَأَحْـلاهُ

ورنوةٌ لَـكِ رَاحَ الـنَّجْمُ يَرْشُـفُهَا حَتَّـى تَـرَنَّحَ سُـكْرٌ في مُحَيَّـاهُ

لَمْ تَعْرِفِ الحُورُ أَشْهَى مِـنْ سُـلَافَتِنَا رَفَّ الهجـيرُ نَـدًى لَمَّـا سَـقَيْنَاهُ

مُدَلَّهٌ فِيـكِ، مـا فَجْـرٌ ونَجْمَتُـهُ! مُوَلَّـهٌ فِيـكِ، مـا قَـيْسٌ ولَـيْلاهُ!

مَنْ كَانَ يَسْكُبُ عَيْنَيْـهِ ونُورَهُمَـا لِتَـسْتَحِمَّ رُؤاكِ الـشُّقْرُ لَـوْلاهُ

سَما بِحُسْنِكِ عَنْ شَكْواهُ تَكْرِمَـةً ورَاحَ يَسْمُو عَنِ الـدُّنْيَا بِـشَكْواهُ

---

(١) ديوانه ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٥.

Generated by CamScanner

يُرِيدُ بِدْعًا مِنَ الأَحْزانِ مُؤْتَلِقًا ... وَمِنْ شَقَاءِ الهَوى يَخْتَارُ أَقْسَاهُ

هٰذا السُّلافُ[1] أدامَ اللهُ سَكْرَتَهُ ... مِنَ الشِّفاءِ البَخِيلاتِ اعْتَصَرْنَاهُ

وسعت الحضارةُ مداركه، وأَغْنَتْهُ طيوفها وأنداؤها بالألفاظ المهذَّبة، والصور الملوَّنة[2]:

أَصْبَحْتُ بَعْدَهُمُ حَيْرانَ مُنْفَرِدًا ... والرِّيْحُ مُعْوِلَةٌ واللَّيْلُ مُعْتَكِرُ

إِنِّي أُكَرِّمُ شِعْري في متارِفِهِ ... كما تُكَرَّمُ عند المؤمن السُّوَرُ

هَدِيَّةُ اللهِ فِيها عِطْرُ جَنَّتِهِ ... والخَمْرُ واللَّعَسُ النَّشْوانُ والحَوَرُ

مطلوب

أُرِيدُ حُبًّا كَنارِ الحَقِّ مُلْتَهِبًا ... كَمُزْبِدِ المَوْجِ مِنْ شَمَّاءَ يَنْحَدِرُ

وقال[3]:

يَسْأَلْنَ باللَّهْفَةِ الغَيْرى عَلَى خَجَلٍ: ... مَنْ فَجَّرَ العِطْرَ مِنْهُ حِينَ أَدْمَاهُ؟

كلّ أولئك المصادر الثرّة اجتمعتْ في روح البدويّ، ففاضتْ شعرًا أعذب من الماءِ الزُّلال، فروحه تتجلّى في أشعاره وتنسرب فيها حتّى لتكاد تُغْري النّاظر فيها أنْ يمدَّ يدَه إليها يحاولُ أن يلمسها متوثّبة في شرايين شعره!

---

(١) السُّلافة من الخمر أخلصُها وأفضلُها، وذلك إذا تحلَّب من العنب بلا عَصْرٍ ولا مَرْثٍ، وكذلك من التّمر والزّبيب ما لم يُعَدْ عليه الماءُ بعد تحلُّب أوّله. والسُّلاف: ما سال من عصير العنب قبل أنْ يُعصر، ويُسمَّى الخمر سُلافًا. اللّسان [س ل ف].

(٢) ديوانه ٣٣٢.

(٣) ديوانه ٤٨٣.

Generated by CamScanner

موقف البدويّ من الشعر الجديد فهم وتلخيص

ولعلّه من النّافع أَنْ نُلِمَّ بموقف البدويّ من الشعر الجديد، وفلسفته الخاصة حول هٰذا المخلوق الجميل المسمّى الشعر الذي تهيَّأت له أسباب ولادته.

يرى البدويّ أنَّ الشعر[1] لا تعريفَ له، وكلّ تعريف للشعر جرأةٌ على تميُّزِهِ وتفرُّدِهِ. والشعر عنده ضَرْبٌ من النُّبُوَّة. إنَّه خيال ونغم وضوء وصور، ولكنَّه فوق ذلك شيءٌ أشملُ وأدقّ؛ إِنَّهُ هديَّة الله إلى الرُّوح. وحين يُشَبِّهُهُ بالنُّبُوَّة – والنُّبُوَّة إِلْهامٌ وغيبٌ – يكاد يشعر أَنَّ تعبيرَهُ عن هٰذا الشيء في الشعر يعتورُه النقص، ويتجانفُ عنه الإطباق.

ويرى البدويّ أنَّ الوزن في الشعر العربيّ قطعة لا تتجزأ منه، وكلّ عبث بالأوزان هو عبث بالشعر وعبقريّته وإلهامه.

ويرى أنَّ الأوزان أساور وعقود لا سلاسل وقيود، وقد استطاعت الأوزان العربيّة دون أنْ تتغيّر أَنْ تستوعب ما في الجاهلية وصدر الإسلام والعصرَيْنِ الأموي والعبّاسيّ من التّحوّل في الحضارة وألوانها. والأوزان العربيّة في هٰذا العصر وفي كلّ عصر تتسع لكلّ جديد.

وحين قال البدوي[2]:

---

(١) بدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ١٢٢.

(٢) مقدّمة ديوانه ٤٨، ٤٩.

Generated by CamScanner

أنـا أبكـي لكـلِّ قَيْـدٍ فـأبكي لقريـــضي تَغُلُّـــهُ الأَوْزَانُ

سُئل: أَلا يدلُّ هٰذا على أنَّ الأوزانَ أغلالٌ؟

فقال: قد تمرُّ بالشّاعر خاطرةٌ يُمليها جوُّ القصيدة، حين تكلّمت على القيود في قصيدتي مرَّ هٰذا المعنى مرورًا. والواقع أنا لا أؤمن أنَّ الأوزان قيود، ولكنّها نغم وعطر وجمال.

يُهَيَّأُ لي أَنَّ البدويَّ يرى بحور الشعر العربيّ كوكب الأرض، إذ لست تستطيع أَنْ تُقيم أيّ نشاطٍ إنسانيّ إلّا فوقه، وأيّ نشاطٍ على غيره هو عمل في الهواء لا يلبث أنْ يتهاوى، وكذلك الأوزان فيها من السّعة والرّحوب ما تطوي فيه بين أضلاعها سُلاف كلّ قريحة تحلَّبت، ونزوة كلّ شاعر لمعت. وكلّ شاعر يحاول البناء على غير هٰذه البحور إنّما يبني في الهواء.

وقدّر البدويّ أنَّ الشعر الحديث نشأ مِن أمرين:

الأوّل حبّ الإغراب، وهٰذه نزعة نفسيَّة تستحوذ على كثير من نواحي النفس الإنسانية، وقد قيل: لكنّه خالف فذُكر وعُرف، وأغرب فذُكر واستُظْرِف.

الثّاني الوصول إلى الشّاعريّة عن طريق سهل لا جهدَ فيه ولا عناء.

حتى يستطيع الشّاعر أنْ يكونَ شاعرًا لا بُدَّ له من الشّاعريّة، وهي لا تُعَلَّمُ، ولا تُكتسبُ، ولا تُدَرَّسُ، هي منحة من الله، ولكنَّها تحتاج إلى أصالةٍ في اللُّغة: أنْ يُلِمَّ الشّاعرُ بلُغتِهِ إلمامًا صحيحًا، وأَنْ يدرسَ كتب الأدب كالأغاني وآثار التوحيدي، وأَنْ يقرأ شعر الأخطل والفرزدق وجرير، وأبي نواس وبشّار، والمتنبّي وأبي تمّام والبحتريّ والشّريف ومهيار.

Generated by CamScanner

فشعراء ما يسمّونه بالشعر الحديث باستثناء اثنين منهم لا يعرفون عن الأدب العربيّ إلّا ما يعرفُهُ تلميذٌ في مدرسةٍ ابتدائيةٍ، حتى الصرف والنحو لا يعرفونه، فكيف يستطيع هؤلاء وهم يجهلون لغتهم، ويجهلون أدبها، وأساليب الإبداع فيها، أنْ يأتوا بشيءٍ جديدٍ.

إنّ مَنْ يريد أنْ يُجَدِّدَ عليه أَنْ يتقنَ القديم أَوَّلًا، ثمّ إذا هو استطاع أَنْ يُجَدِّدَ فليجدِّدْ، ثمّ نحكم.

والشعر الحديث نزوة عابرة ساعد عليها ضعف العناية باللُّغة العربيّة في المدارس.

إذا فقد الشعر ديباجته الصّافية لم يبقَ شعرًا؛ إنَّ الدِّيْبَاجَةَ الصَّافِيَةَ وَطَنُ الشِّعْرِ، ومِنْ دونِها يكونُ الشعرُ غريبًا، أو بالأَحْرَى لا يكونُ شعرًا على الإطلاق.

إنَّ قراءة الشعر القديم تزيِّنُ الديباجة وتعطِّرها، ولكنَّها لا تخلُقُها ولا تُبْدِعُها.

الأناقة لا تكون إلّا في الشّاعريّة أوَّلًا، ثمّ بقراءة الأدب العربيّ القديم قراءةً واسعةً، وبوفرة المفردات، وتعوُّدِ ضمِّ اللُّؤلؤة منها إلى اللُّؤلؤة.

إنَّ الأناقة «الصَّنعة» لا تكون إلّا بعد أَنْ تكون الشاعريّة إلهامًا أنيقًا.

إنَّ المدرسة والثقافة والمجتمع والتاريخ قد تخلُقُ عالمًا، وقد تَخْلُقُ فيلسوفًا، وقد تخلُقُ مخترعًا، وقد تخلقُ أنواعًا متعددة من العظماء، ولكنّها لا تستطيع أنْ تخلُقَ شاعرًا، فالله وحده هو الذي يخلُقُ الشّاعر.

فالشّاعريّة والامتراس بروائع الشعر القديم عمود الشعر ومِلاكُه من وجهة نظر البدويّ، وكان البدويّ أنبه إخوته وأشدَّهم عارضةً، يقف على ديوان

Generated by CamScanner

من دواوين الفحول يتلقّف ما فيه مِنْ غرر القصائد وبدائع المقطوعات، ويختزن كلَّ أولئك في روحه، حتّى إذا تحرّكت شهوة الشعر، وجاشت رغبة القول أمدَّه مخزونهُ بما شاء من الألفاظ الفِصاح العِتاق الأُوَل مُسْبِغًا عليها من روحه وشاعريته ما يضمنُ لها حياةً رغيدةً ينبو عنها الموت.

وقد روى زعيتر[1] في مقدّمة الديوان عن البدويّ قَوْلَه له: «وقد كنت رفيقي الدّائم ليلًا ونهارًا وأنا أنظم قصيدتي «البلبل الغريب» في فيينا، وقصيدتي «حنين الغريب» في جنيف، وكنت أستشيرُك في كلِّ نَغَمٍ وأسارُّك في كلِّ ألَمٍ، وأنتقي وإيّاك المفردات، ونغيّرُ هنا كلمة، ونبدّلُ هناك كلمة، كما أنّك رفيقي عند كلِّ روضةٍ مطلولةٍ أوْ رَفَّةٍ معسولةٍ»اهـ

يُلمع زعيتر فيما يحكيه عن الرّجل إلى أنّهُ يُشبه شعراء مدرسة عبيد الشعر، أو أصحاب المُحَكَّكات أو الحوليّات الذين يُرجعون البصر كَرَّتَيْنِ في نصوصهم بعد ولادتها، بشيءٍ من التحبير والأناقة والتغيير، ولعمري مثل هٰذا لا يصحّ في شعر البدوي المطبوع، وهو الذي آمن بأنّ الشعر طبع ومنحة إلهيّة لا صنعة ومُكْتَسَبٌ بشريّ، ولئن صحّ فإنّه يُشْبِهُ غسيل الأمّ لجنينها ساعة يُخلق تُذهب عنه ما غَشِيَه من آثار المخاض، فتمسح جبينه بالماء لتكشف عن صباحة وجهه، وتُسَرِّح شعره ليُطِلّ الصُّبح من مقلتيه، وهٰذه الأعمال ونحوها مِنِ الاغتسال بالندى لا تَضيرُ الشّاعرَ، ولا تعني أنَّ القصيدةَ الجنينَ تكابدُ تشوُّهًا أو خَلْعًا ولاديًّا البتّة، إنّما هو ضَرْبٌ من خِلاج الخاطر وتعادي المناظر استحسن لُفيظةً هنا، ونَحّى أخرى هناك.

---

(١) مقدمة ديوان البدوي ١٩.

Generated by CamScanner

بعد الخصائص مع ذكر شاهد واحد على كل خاصية شعرية.

خصائص لغة الشّعر عند بدويّ الجبل

١- الاتّساع في التّضمين:

التضمين[1]: إشرابُ لَفْظٍ معنى لَفْظٍ، فيُعْطى حُكْمَهُ، وفائدته أَنْ تؤدّيَ كلمةٌ معنى كلمتين.

وقال ابن جنّي[2]: ومن الحمل على المعنى بابٌ واسعٌ لطيفٌ، وهو اتّصال الفعل بحرفٍ ليس مِمّا يتعدّى به؛ لأنّه في معنى فعلٍ يتعدّى به. ويُسمّى هٰذا الضَّرْبُ من الحمل التضمين.

قال بدويّ الجبل[3]:

ولقد تركتُ الشّعرَ وهْو مُحَبَّبٌ مُذْ صار يَفْهَمُ فيه كلُّ بليدِ

قال بعضُ مَنْ علّق على البيت: «أبصر معي «فيه»، فهل يضعُها هنا شاعرٌ تمرّسَ بالشّعر واللُّغة أم يقول: يفهمُه؟ ولكنّها حداثةٌ لا يُحاسَبُ عليها».

لعمري لا يقول «يفهم فيه» إلّا شاعرٌ تمرّس بأساليب العربيّة، وقرأ الخصائص لابن جنّي، ذٰلك أنّ البدويّ ضَمَّنَ «يفهم» معنى «يتقحّم» أو

---

(١) المغني ٨٩٧.

(٢) الخصائص ٢/ ٤٣٥.

(٣) بدويّ الجبل حكاية شاعر ٤٠.

Generated by CamScanner

«يَلِجُ»، فعدّاه بـ«في»، ليجعل لفظ «يفهم» دالًا على معنيين؛ الأوّل: سلب الفهم عن المتقوّل في أمر الشعر، والثاني: تَقَحُّمُهُ فيما لا يُحْسِنُ من أمر هذه الصناعة. فانظر كيف اصطفّ المعنيان بعد تعدية الفعل «يفهم» بـ «في». ويبدو أنّ البدويّ عنى هٰذا النّاقد اللّغويّ الذي يتعقّب شعره، ويغفر زَلَلَهُ لحداثة سنّه !!!

ترى هل يُخَطِّئُ هٰذا النّاقد أبا كبير الهذليّ حين قال في تأبّط شرًّا:

حَمَلَتْ بِهِ في ليلةٍ مَزْؤُودَةٍ ... كرهًا وعقد نطاقِها لم يُحْلَلِ

مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وهنَّ عواقِدٌ ... حُبُكَ النِّطاقِ فشَبَّ غيرَ مُهَبَّلِ

لقوله تعالى ﴿حملته أمه﴾ [سورة لقمان ١٤]، فأبو كبير عدّى «حمل» بالباء، والبيان الإلهيّ عدّاه بنفسه؟

ضمّن أبو كبير «حمل» معنى «عَلِقَ»، فعَدّاه بالباء، في إشارة منه إلى أنّ أمّ تأبّط شرًّا حملت به، وهي كارهةٌ، وهٰذا يُفَسِّرُ شرّ تأبّط شرًّا المستطير، وذٰلك معتقد عند العرب أنّ الرجل إذا أتى امرأةً وهي لإتيانه كارهة، ثمّ وقع حمل، جاء المحمولُ بئيسًا شرّيرًا.

وهل يُخَطِّئُ هٰذا الناقد اللّغوي الفرزدق في قوله:

كيف ترانِي قالبًا مجنِّي

قد قَتَلَ اللهُ زيادًا عنِّي

ضمّن «قتل» معنى «صَرَفَ»، فعدّاه بـ«عن»، أي صرفه عنّي بالقتل.

Generated by CamScanner

٢- توظيفه ألفاظًا ذات دلالات تراثيّة غنيّة:

قال بدويّ الجبل[1]: الشواهد مع الشرح

يا مَنْ يَمُنُّ بوُدِّهِ والشُّهْدُ - حين يَمُنُّ - صَابُ

الصَّابُ[2]: شَجَرٌ إذا اعتُصِرَ خَرَجَ منه كهيئةِ اللَّبَنِ، وربَّما نَزَتْ منه نَزِيَّةٌ أي قَطْرةٌ، فتقع في العين كأنَّها شهابُ نارٍ، وربَّما أَضْعَفَ البصر، قال أبو ذُؤيب: غير مطلوب

نام الخَلِيُّ فبتُّ اللَّيلَ مُشْتَجِرًا كَأَنَّ عينيَ فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

والمُشْتَجِرُ: الذي يضع يده تحت حَنَكِهِ مُذكِّرًا لشدَّةِ هَمِّه.

فانظر إلى هٰذه اللَّفظة المأنوسة «صاب» كم اختزنت من الدلالات، كيف سخّرها البدويّ نقيضًا للشُّهْد الذي هو العسل ما دام لم يُعْصَرْ مِن شَمْعِه، وهٰذا الجمع الحاذق بين الضّدّين يزيد المعنى وضوحًا، ويدلّ على حركة متصاعدة داخل النّصّ.

وقال أيضًا[3]: الشاهد مع الشرح

وخفَّ إلى ظِلالِكَ عَبْدُ شَمْسٍ يُرِيْحُ شُجُوْنَهُ ظَمْأَى طِلاحا

الطَّلْحُ[4]: مصدر طَلِحَ البعيرُ إذا أعيا وكَلَّ، وبعير طِلْح وطَلِيح، وجمع طِلْح أطلاح وطِلاح. ناقة طليح أسفار: إذا جَهَدَها السَّيْرُ وهَزَلَها.

---

(١) ديوانه ٧٩.

(٢) اللّسان [ص و ب].

(٣) ديوانه ١٢٩.

(٤) اللّسان [ط ل ح].

Generated by CamScanner

استدعى البدويّ لفظ «طِلاح» وهو وصف للإبل التي هَزَلَها السير وأنضاها، ثمّ نقلها إلى حقل دلاليّ جديد، إذْ جَعَلَها حالًا للشُّجون التي كدَّها العطش وأنحَلَها الإعياءُ والنَّصَب.

٣- عقد ألفاظه بألفاظ شعراء تمكّنت أشعارهم من نفسه:

قال البدويّ[1]: مطلوب

وعلى الصَّوافِنِ فتيةٌ عَلَويَّةٌ بِيضُ الوجوهِ إذا جَروا لم يُلْحَقُوا

شُمُّ الأُنوفِ فما تَأَبَّى مَأْزِقٌ إلّا بسُمْرِهِمُ استُبِيحَ المَأْزِقُ

ينظر إلى قول حسّان في الغساسنة: مطلوب

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهم شُمُّ الأُنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

وقال أيضًا[2]:

فكأنّها فيها تُزَخْرِفُ مِنْ مُنى آسٍ تحاول كفُّه التجميلا

ينظر إلى قول المتنبّي يصف الأسد[3]:

يَطَأُ الثَّرى مُتَرَفِّقًا مِن تِيْهِهِ فكأنّه آسٍ يَجُسُّ عليلا

لا يُسرع الأسد في مشيه لعزّته في نفسه وقوّته لأنّه لا يخاف شيئًا، فكأنّه في لين مشيته طبيبٌ يجسُّ عليلًا يَرْفِقُ به ولا يَعْجَلُ.

---

(١) بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة ٢٦٠.

(٢) ديوانه ٤٣٥.

(٣) شرح ديوانه للواحدي ١/ ١١٦.

Generated by CamScanner

مع ما يُلحظ من تباين الحقلين اللذين وردت فيهما الصورة، فالصورة عند البدويّ للنِّعَمِ التي تتلطَّف في زراعة الآمال والأمانيّ، وتُزَيِّنُها كأنَّها الطبيب الرَّفيق الذي يتهلّل للمريض يُخْبِرُهُ بدنوّ عافيته وارتداد صحّته.

وقال:

وحديث كأنَّهُ قِطَعُ الرَّوْضِ ... تَنَوَّعْنَ أقحوانًا ووَرْدا

وقال بشّار بن بُرد[1]:

وكأنَّ رَجْعَ حديثها ... قطع الرِّياضِ كُسِينَ زَهْرا

ولا ضير أنْ يتوكّأ الشّاعر على نظيره ممَّن خلا من الشعراء، يحاول الوقوف على أكتاف العمالقة، يقلّد صورهم وأساليبهم، ثمّ لا يلبث أنْ يَعْرُجَ بها إلى سماوات جديدة، وقد فعل المتنبّي نفسه هٰذا حين قال[2]: مطلوب

أزورُهم وسواد اللَّيْلِ يَشْفَعُ لي ... وأنثني وبياضُ الصُّبْحِ يُغْري بي

قابل أزورهم بأنثني، وسواد الليل ببياض الصبح، ويشفع لي بيُغْري بي، فجمع فيه بين الصنعة وحسن المعنى، وهو من شوارد بدائعه، وإنْ كان فيه ناظرًا إلى قول ابن المعتزّ[3]: غير مطلوب

لا تَلْقَ إلّا بليلٍ مَنْ تُواعِدُهُ ... فالشَّمْسُ تَمّامةٌ واللَّيلُ قَوّادُ

كم عاشقٍ وظلامُ الليل يسترُه ... لاقى الأحبَّةَ والواشونَ رُقّادُ

---

(١) ديوانه ٢٧٢.

(٢) شرح ديوانه للواحدي ١/ ٢٢٥.

(٣) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم للصولي ١/ ٢٢٥.

Generated by CamScanner

الليل عند المتنبي شفيع له لأنه يستره عن الرقباء، وعند الانصراف يُشْهِرُهُ الصُّبْحُ وكأنّه يُغريهم به حيث يُريهم مكانه، وأين هٰذه الصور من قول الأوّل: «لا تَلْقَ إلّا بليلٍ مَنْ تُوَاعِدُهُ» من المباشرة والخطابيّة والصراحة الفجّة؟!

وقد عُرف عن أبي العلاء الإغارة على معاني سابقيه، ثمّ صوغها بروحه، من ذٰلك قول الإمام عليّ: «الدّنيا جيفة، فمن طلبها فليصبرْ على مخالطة الكلاب. أو الدّنيا والآخرة ضُرّتان، إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، لا بل هما أختان، ولا يجوز الجمع بين الأختين».

قال أبو العلاء: غير مطلوب

أَلا إِنَّما الدُّنيا تَشابهُ مَيْتَةً ونحنُ حواليها الكلابُ النَّوابحُ

٤ - تكرار عبارات بأعيانها في غير ما قصيدة:

قال في قصيدة «إنّي لأشمتُ بالجبّار»[1]:

ثارات يعربَ ظمأى في مراقدها تجاوزتْها سُقاةُ الحيِّ نِسْيانا

وقال في قصيدة «يا وحشة الثأر»[2]: مطلوب

ثارات يعربَ ظمأى في مصارعها تَجاوَزَتْها سُقَاةُ الحيِّ نِسْيانا

وقال في قصيدة «تلك الأقانيم الثلاثة»[3]:

---

(١) ديوانه ٨٦.

(٢) ديوانه ١٥٨.

(٣) ديوانه ٦٤٦.

Generated by CamScanner

أَسْهَبْتُمْ بوُعُودِكُمْ وأَطَلْتُمُ ضِدَّ البلاغةِ ذٰلك التَّطْوِيلُ

وقال في قصيدة «أين أين الرعيل من أهل بدر»[1]:

هادراتٌ بخُطْبَةِ المجدِ بَتْرَاءَ ويُؤْذِي البلاغةَ التَّطْوِيلُ

٥- كثافة التشخيص والشَّغف بتراسل الحواسّ:

القصيدة البدويّة فتاة حسناء عذراء مُنَعَّمة مُتْرَفة يسحُّ منها السِّحرُ سحًّا غَدَقًا طبقًا، تتدفّق عليها الحياة ساحرةً زاخرةً بالحسِّ البعيد الغور.

قال البدوي[2]:

ومِنْ لُبَاناتيَ السَّكرى مُصَرَّعةٌ مِن الوَنَى بين أَفْيَاءٍ وأَفْنَانِ

جعل اللُّبانة وهي الحاجة شخصًا يشرب ويسكر ويُصْرَعُ ويمشي الهُوينى ويقع من الفتور!

وقال يبثُّ حفيده محمَّدًا حنينًا متوهِّجًا ولهفةً حرّى:

تودُّ النّجومُ الزُّهْرُ لو أنّها دُمى ليختارَ منها المُتْرَفَاتِ ويَلْعبا

[فالنُّجوم تحبّ وتشتهي أَنْ تستحيل دُمى يختار منها الحفيد ما يشتهي، لا أنَّ الحفيد هو الذي يتشهَّى أنْ تستحيل النجوم دُمى يتخيّر منها ما يحلو. ونحو من هٰذا القَلْب البديع قولُ أعرابيّ في وصف امرأةٍ يُحبّها: «كاد الغزالُ يكونُها، لولا ما نَقَصَ منه، وتَمَّ منها»]

(١) ديوانه ٢٩١.

(٢) ديوانه ٣٩٧.

Generated by CamScanner

ولست ترى مثل البدويّ يُعَبْقِرُ الألم، ويُحَسِّنُ الهمَّ، ويُنَضِّرُ الحزنَ:

بُورِكَ الهمُّ عَبْقَرِيًّا جَوَادًا ... لا كهمٍّ أعطى قليلًا وأكْدَى

وقال[1]:

من همومي ما يَغْمُرُ الكَوْن بالـ ... ـعطر ومنها مَزَاهِرٌ وقِيَانُ

وأنا الوالدُ الرَّحيمُ وأَبنائي ... همومُ الحياةِ والأشجانُ

وقال[2]:

مُقْلتي يستحمُّ في دَمْعِها الطَّيْفُ ... وتَحْنو فلا يموتُ غريقا

وقال[3]:

تَعُبُّ من حسنه عيني فإنْ سَكِرَتْ ... أغفتْ على سندسيٍّ مِنْ أساطيرِ

طيوبُها في زيارات الرُّؤَى نَزَلَتْ ... من مُقلتيّ على أصفى القواريرِ

كأنَّ همسَكِ في ريَّاه وشوشةٌ ... دار النَّسيمُ بها بين الأزاهيرِ

تندى البراءةُ فيه فهْو منسكبٌ ... من لغوِ طفلٍ ومنْ تغريدِ عُصفورِ

رشفتُ صَوْتَكِ في قلبي مُعَتَّقَةً ... لم تُعْتَصَرْ وضياءً غيرَ منظورِ

٦ - شجاعة اللُّغة في شعر البدويّ:

البدويّ حَسَنُ السَّبْكِ، بليلُ الرِّيقِ، رقيق حواشي الكلام، أنيق اللَّفْظِ، سليم المَلَكة، مَحْضُ الطَّبع، بصير باختيار الألفاظ، عليم بمواقع الكلم،

(١) ديوانه ١٨٨.

(٢) ديوانه ٢٧٣.

(٣) ديوانه ١١٨.

Generated by CamScanner

يتخيّر من الألفاظ أحسنها مسموعًا، لا أفصح منه نطقًا، ولا أبين منه عبارة، وفي مثله يصحُّ قول المتنبّي: غير مطلوب

نُطْقٌ إذا ما القولُ حطَّ لثامَهُ ... أعطى بمنطقِهِ القلوبَ عُقُولا

أو قول أبي إسحٰق الصّابي: غير مطلوب

لك في المحافِلِ منطقٌ يَشْفي الجوى ... ويسوغُ في أُذُنِ الأَريبِ سُلافُهُ

فكأَنَّ لَفْظَك لُؤْلُؤٌ مُتَنَخِّلٌ ... وكأَنَّما آذَانُنا أَصْدافُهُ

ولـمَّا كان رأس الشعر الطّبع، وعمودُه الدُّربة، وجناحاه رواية الكلام، وبهاؤه تخيُّر اللفظ أخذ البدويّ من كلّ أولئك بنصيب جعله أمير البيان، يمرق الشعر من فمه مروق السّهم من الرّميّة، أعذب من الماءِ، وأرقّ من الهواء، ولقد صدق من قال: لو أنَّ في الصّناعات صناعةً مربوبةً لكانت صناعة البيان ربًّا لكلِّ صناعةٍ! ومن شرف البيان أنَّ صاحب السيف يزاحم صاحب البيان في قلمه، ولا يزاحمه صاحب البيان في سيفه!

قال البدويّ[1]: مطلوب

إنَّ قلبي خميلةٌ تُنْبِتُ الأحزانَ ... وردًا ونرجسًا وشقيقا

لو على الصخر نهلةٌ مِنْ جراحي ... راح مُخْضَوْضِلُ الظِّلالِ وَرِيقا

شقائق النُّعمان[2]: نبتٌ، واحدتها شقيقة، سُمِّيت كذلك لحُمْرَتِها على التشبيه بشقيقةِ البرق.

---

(١) ديوانه ١٣٩.

(٢) اللّسان [ش ق ق].

Generated by CamScanner

وقيل: واحده وجمعُه سواء. وإنما أُضيف إلى النُّعمان؛ لأنه حمى أرضًا، فكثر فيها ذلك.

وقيل: نَوْرٌ أحمرُ يُسمَّى شقائق النُّعمان، وإنما سمِّي بذلك، وأُضيفَ إلى النُّعمان بن المنذر، لأنه نزل على شقائق رملٍ قد أنبتتِ الشَّقِرَ الأحمر، فاستحسنها وأمر أنْ تُحمى.

تَجَرَّأ البدويّ على هٰذا اللفظ «شقائق النُّعمان» ثلاث مرَّات؛ حذف المضاف إليه، ورخَّم المضاف، ورخَّم «شقيق» في غير باب النداء، وقد قال علماء الضرائر: الترخيم في غير باب النِّداء ضرورة، وجعلوا منه قول أعشى تغلب:

أَلَمْ يَكُ غَدْرًا ما فعلتُمْ بشَمْعَلٍ ... وقد خاب مَنْ كانتْ سريرتَه الغَدْرُ

وقال أيضًا[1]:

لا شقيقُ النُّعمان في غوطة الشّا ... م ولا عطـــرُهُ ولا الـــنُّعمانُ

وقال أيضًا[2]:

مُسَائِلًا عنه حتَّى قد عَيِيتُ بِهِ ... إرثَ الفلاسِفِ مِن هِنْدٍ ويُونَانِ

رخَّم «شقيق النُّعمان»، و«الفلاسف» في غير باب النِّداء، أدَّاه إليه ما يلحق الشّاعر من الدَّهَشِ في حال خَلْقِ الشعر، ومن رنين لا يتورّع عن الخروج على تقاليد اللُّغة في مطارح شتّى من شعره دون أن يُذْهِبَ شيئًا من رَوَائِهِ، أو يُحْدِثَ أثلامًا فيه؛ قال ابن جنّي[3]: «فمتى رأيتَ الشّاعرَ قَدِ ارتكب

---

(١) ديوانه ١١٥.

(٢) ديوانه ٤٠٥.

(٣) الخصائص ٢/ ٣٩٢.

Generated by CamScanner

مثل هٰذه الضرورات على قُبْحِها وانخراقِ الأُصُول بها، فاعلمْ أنَّ ذٰلك على ما جَشِمَهُ منه، وإنْ دَلَّ مِنْ وَجْهٍ على جَوْرِهِ وتعسُّفِهِ، فإنَّهُ من وَجْهٍ آخَرَ مُؤْذِنٌ بصِيَالِهِ وتَحَمُّطِهِ، ولَيْسَ بقاطعِ دليلٍ على ضَعْفِ لغته، ولا قصورِهِ عَنِ اختيار الوجهِ النّاطقِ بفصاحته. بل مَثَلُهُ في ذٰلك عندي مَثَلُ مُجْرِي الجَمُوحِ بلا لجام، ووارِدِ الحربِ الضَّروسِ حاسرًا من غير احتشام. فهو وإنْ كان ملومًا في عُنْفِهِ وتَهالُكِهِ، فإنَّهُ مشهودٌ له بشجاعته وفَيْضِ مُنَّتِهِ؛ ألا تراهُ لا يجهلُ أنْ لو تَكَفَّرَ في سلاحِهِ أَوْ أعصم بلجامِ جَوَادِهِ لكان أقرب إلى النَّجاة، وأَبْعَدَ عن الملحاةِ، لكنَّه جَشِمَ ما جَشِمَهُ على علمه بما يُعْقِبُ اقتحامُ مِثْلِهِ إذْلالًا بقُوَّةِ طَبْعِهِ، ودلالةً على شهامة نفسه».

وقد وقع مثل هٰذا الاستعمال في شعر امرئ القيس[1]:

وعمرو بْنُ دَرْمَاءَ الهُمامُ إذا غَدَا ... بذي شُطَبٍ عَضْبٍ كمِشْيَةِ قَسْوَرا

وهٰذا يُؤْنِسُك بشجاعة اللُّغة في شعر البدويّ، ولئن ظلّ الرّجل في وعاء الديباجة العربيّة الأُولى إنَّه بدَّل باللّبن الذي فيه ماءً عَذْبًا نَميرًا ناضحًا بتفرُّد البدويّ، وأنَّه نسيجُ وحده وفريدُ دهره، وما يُشَمُّ من رائحة اللّبن الباقية في الوعاء الجديدة لا تدلّ إلّا على اخضرار غصن بعد أنْ غَذَتْهُ جذور الشجرة بماءِ الحياة[2]:

مَنْ مُبْلِغٌ عنّي الرَّئيسَ قصيدةً ... تحمي الثُّغورَ وكلَّ بَيْتٍ فَيْلَقُ

وأنا الذي غنَّى الشآم فهزَّها ... منه البيانُ العبقريُّ المُوْنِقُ

---

(١) ديوانه ٣٩٤، وضرائر الشعر لابن عصفور ١٣٩، وفي رسالة الغفران ٣٢٢: «ليس بموضع الحذف، وقلّما يُصاب في أشعارهم مثل ذٰلك».

(٢) ديوانه ١٦٣.

Generated by CamScanner

«مَنْ مبلغ عنّي» نَسَبٌ صريح بين النَّجل والنَّاجل، وما سواه كائنات حيّة جديدة فُرادى.

بل ربَّما غادر الرّجل كلّ أولئك الجذور[1]:

حضارةُ الدَّهرِ طِيْبٌ من خَلَاعتِنا ... وجنَّةُ الله عِطْرٌ مِنْ خَطَايانا

مِن الغواية سلسلْنا هدايتَنا ... فكان أَرْشَدَنا للنُّورِ أَغْوَانا

وقال مُبْتَدِعًا قِسْمَةً للقُبَلِ[2]: مطلوب

- مِنْ قُبْلَةٍ خائنةٍ مُرَّةٍ ... وقُبْلَةٍ قد تَمْتَمَتْ لا أَخُونْ
- وقُبْلَةٍ مجنونةٍ في اللَّمَى ... وقُبْلَةٍ وَادِعَةٍ في الجبينْ
- وقُبْلَةٍ حَمْرَاءَ مِثْلِ اللَّظَى ... وقُبْلَةٍ بيضاءَ مِثْلِ اليقينْ

ومِمّا أُخِذَ[3] على لغة البدويّ قوله من قصيدة: «أطلَّ من حرم الرُّؤيا فعزّاني»:

صَحِبْتُ فيكِ شبابي والهَوَى ومُنًى ... لُعْسَ الشِّفاهِ وظِلًّا غَيْرَ ضَحْيَانِ

«العلّة في قوله «ضَحْيَانِ»، إذ إنَّهُ كما في القاموس وغيره من المعاجم: اسْمُ مَنْ يأكلُ في الضُّحى لا غير. وهو معنًى لا يقصدُ الشّاعر إليه نظرًا لما تقدَّم عليه من القرائن، وكلُّها ترمي إلى الأمل والشباب والفتوّة، ولا أثر للأكْلِ فيها» انتهى ما قاله النّاقد.

(١) ديوانه ١٤٩.

(٢) ديوانه ٤٦١.

(٣) ديوانه ٣٩٦، وبدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ٣٦٩.

Generated by CamScanner

الضَّحَاءُ[1]: إذا امتدَّ النَّهارُ وكَرَبَ أنْ يَنْتَصِفَ، أو ارتفع النَّهار، واشتدَّ وَقْعُ الشَّمس. والضَّحَاءُ أيضًا: الغَدَاءُ، وهو الطَّعام الذي يُتَغَدَّى به، سمِّي بذلك؛ لأنه يُؤْكَلُ في الضَّحَاءِ. ورجل ضَحْيَان: إذا كان يأكلُ في الضُّحى.

إلى نحو هٰذا احتكم النَّاقد اللُّغويّ في مؤاخذة البدويِّ على استعمال «غير ضَحْيَان» وصفًا للظِّلّ، وإذا كان مَنْ يأكل في الضَّحَاء وقت ارتفاع الشمس يُسمَّى ضَحْيان، وهو وصف يدلّ على الامتلاء نحو شبعان، والامتلاء أو الخُلُوّ أحد الأغراض التي وُضع لها بناء «فَعْلان»= فما الذي يمنع أنْ يُقال للظِّلّ الكائن في مثل هٰذا الوقت من النهار: الضَّحْيان؟ وفي أساس البلاغة ما يقطع بصحَّة هٰذا الاستعمال وصوابه، يقال: شجرةٌ ضاحيةُ الظِّلّ، أي لا ظلَّ لها. وغير ضَحْيان صارت ههُنا بمعنى ظلّ ظليل، أوْ ظلّ وارف.

ومن القصيدة نفسها أُخذ عليه[2]: غير مطلوب

مُذْ ظِلالَـكِ يَـنْعَمْ في غلائِلِهـا صَرْعى الرَّدى مِن أَحبَّائي وأَخْدَاني

فالغلائل عند النَّاقد الدّرع أو مساميرها الجامعة بين رؤوس الحَلَقِ أوْ بطائن تُلْبَسُ تحتها، وجميع هٰذه المعاني بعيدةٌ عمّا يقتضيه البيت[3]!

وفاته[4] أنَّ الغِلالة شِعار يُلْبَسُ تحت الثوب لأنَّه يُتَغَلَّلُ فيها أي يُدْخَلُ.

وعن ابن الأعرابيّ: الغِلالة: الثوب الذي تشدُّه المرأة على عجيزتها تحت إزارها تُضَخِّمُ به عجيزتها. ومن المجاز: «قولوا للحلائل لا يَبْرُزْنَ في الغلائل»!

---

(١) اللّسان، والأساس [ض ح ي].

(٢) ديوانه ٣٩٧.

(٣) بدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ٣٦٩.

(٤) اللّسان والأساس [غ ل ل].

Generated by CamScanner

وهَبْك أيُّها النَّاقد لم تقف على هٰذه المعاني التي تعانق السِّياق وتلتفّ به التِفافًا- أما يحسن بك أنْ تتلطّف في التأويل وقد نقلت: «الغلائل بطائن تُلْبَسُ تحت الدروع»، فتقول: وإنما سُمِّيَ لباس المرأة الذي يلي جسدها غلائل؛ لأن جسدها والدّرع كليهما يُرشق بالسهام ويُنْضَحُ بالنِّبال، الجسد بسهام العشّاق، والدّرع بسهام المقاتلين، وقد التمس مثل هٰذا التأويل المتنبي قِدْمًا حين علّل تسمية غطاء العين بالجفن والجفن غطاء السيف، قال:

ولذا اسْمُ أَغْطِيَةِ العُيُوْنِ جُفُوْنُها ... مِنْ أَنَّها عَمَلَ السُّيُوفِ عَوَامِلُ

وأُخِذَ عليه[1]:

..... لغَدَتْ ... نُعْمَى الجِنَانِ وبُوسى العَيْشِ سِيَّانِ

رفع «سِيَّان»، وحقُّها النصب «سِيَّيْنِ»، لأنها خبر غدت.

وليس يصحّ تخطئة البدويِّ دون النظر في أساليب العرب، وما قال النُّحاة فيها، فقد رُوي قول حسّان بن ثابت[2]:

كأَنَّ سُلافةً من بيتِ رأسٍ ... يكونُ مِزَاجُها عَسَلٌ وماءُ

برفع «مزاجُها»، وخُرِّجَ على أنْ يُضمر في «يكون» الشأن والقصّة والسّلافة، والجملة الاسميّة (مزاجُها عسلٌ وماءٌ) خبر. وكذا في قول البدويّ اسم «غدت» ضمير القصّة، والجملة الاسميّة (نُعمى الجنانِ وبُوسى العيش سيّان) خبر غدت.

---

(١) بدوي الجبل آثار وقصائد مجهولة ٣٦٩ - ٣٧٠.

(٢) الكتاب ١/ ٤٩.

Generated by CamScanner

عمر وطلوب

ومن نظائره:

إذا ما المرءُ كان أَبُوهُ عَبْسٌ ... فحَسْبُك ما تُريدُ من الكلامِ

ووصف سيبويه قول العُجير[1]:

إذا متُّ كان النّاسُ صنفانِ شامتٌ ... وآخر مُثْنٍ بالذي كنتُ أصنع

سمعناهُ مِمَّنْ يُوثقُ بعربيته.

وقال هشام أخو ذي الرُّمَّة:

هي الشِّفاءُ لدائي لو ظَفِرْتُ بها ... ولَيْسَ منها شفاءُ النَّفْسِ مبذولُ

وأُخِذَ عليه[2]:

ألحَّ بي السُّقْمُ حتّى لا يفارقُني ... وراح يَنْسِجُ قَبْلَ الشَّيْبِ أكفاني

عَفَّى على نَزَوَاتِ النَّفْسِ جامحة ... إلّا اهتزازَ خليعِ الحُسْنِ نَشْوَانِ

قد استُعمل «عفّى على» بمعنى امّحاءِ الأثر ودروسه متعدِّيًا بـ على، قال أبو نواس[3]:

رَسْمُ الكرى بينَ الجُفُونِ مُحيلُ ... عَفَّى عليه بُكًا عليك طويلُ

ويُقال[4]: عفَّى الله على أثر فلان، محا ذكره.

---

(١) الكتاب ١/ ٧١.

(٢) ديوانه ٣٩٦، وبدويّ الجبل آثار وقصائد مجهولة ٣٦٩.

(٣) الصّناعتين ٣٠٢.

(٤) اللّسان [ع ف ي].

Generated by CamScanner

على أنّي كأنّي بالبدويّ ذَهَبَ إلى أبعدَ ممّا رامه هٰذا المتأوّلُ عليه، وهو أن ضمّن «عفّى» معنى «جَثَمَ أو أطبَقَ»، فعدّاهُ بـ على، وهو ممّا يتعدّى ولا يتعدّى، أي يأتي متعدّيًا لمفعولٍ صريحٍ، أو لازمًا، عَفَتِ الرياحُ الدّيارَ، وعَفَتِ الدّيارُ. فلمّا عدّاه بـ على زاد المعنى مَعْنًى جديدًا، فالمعنى الأوّل امّحاء أثر النزوات بفعل السُّقم والمعنى الثّاني أنّ السُّقم جاثم على الشاعر لا يبارحه، ولا يمكّن أيّ نزوة من الإنتاش أو الولادة.

فتأمّل ما رام من تعدية عفّى بعلى، وما أضافه بهٰذا الإشراب إلى السّياق من دلالة مضاعفة، وما رام النّاقد المتعبّد بمتاحف اللُّغة دون أن يلمح ما فيها من حركة الجريان والتصميم على العيش!!!

وأُخِذَ عليه:

وما تَنَبَّهَ حتّى رَاعَهُ وَهَجٌ والشَّمْسُ حَلْيُ رُبًا خُضْرٍ ووِدْيَانِ

جمع واد على وديان، والمسموع أودية، ووديان عاميّ لا أثر فيه للصّحّة.

مطلوب ← وما جرى البدويّ عليه أنّ سلطان الخطأ المشهور أقوى من سلطان الصواب المهجور، والكلمة إذا سادت واستبدّت بالألسنة حتى لا يمكن أن تذرها صارت ببنائها المخالف للقياس ومعناها المستحدث فيها عُرفًا، وربّما بَطَلَت الحقيقة بسُلطان العُرْفِ.

وبَيِّنٌ أنّ هٰذا النّاقد وأضرابه كعَبَدَةِ الأوثان لا يريدون أن يُمَسَّ معبودُهم بأدنى ملامسة، ولا يريدون له الحركة ولا النُّهوض ولا حتى أن ينضحَ ذبابةٌ إذا وقفتْ على أنفه. ولعمري إنّ في هٰذا مجانبةً للصّواب، ووأدًا لروح اللُّغة، وحبسًا لها عن النّموّ ومعانقة الشمس، وقد رأينا كيف أسلم الناقد نفسه لما وقع عليه في

Generated by CamScanner

معجمات العربية دون النظر في أبوابها وأساليبها التي فيها من المرونة والرّحوب ما يُمكّنها مِن استيعاب كلّ لحظات الوعي الهاربة من ساحة اللاشعور، وباب التضمين وَحْدَهُ يزيدك أُنسًا بجمال هٰذه اللُّغة، ويكشف لك أنّ هٰذا اللِّسان العربيّ مِطْواعٌ ينقاد انقياد النّسيم لمن تمرَّس بفنونه وأساليبه وأسراره.

قال بدويّ الجبل[1]: مطلوب خمسة أبيات

شادٍ على الأيْكِ غنّانا فأشْجانا ... تبارك الشِّعْرُ أطيابًا وألحانا

أيطمعُ الشِّعرُ بالإحسانِ يَغْمُرُهُ ... والشِّعْرُ يَغْمُرُ دُنيا الله إحسانا

لو شاء عَطَّرَ هٰذا اللَّيلَ غالية ... ونَضَّرَ الرَّمْلَ أشواقًا ورَيْحانا

لو شاء نَمْنَمَ هٰذا النَّجْمَ قافيةً ... ونَغَّمَ الفَجْرَ أحلامًا وأوْزانا

ولو سقى الشمس من أحزانِهِ نَدِيَتْ ... على هجيرِ الضُّحى حُبًّا وتَحْنانا

وقال من نظر إليه[2]: غير مطلوب

تباركَ الشِّعرُ ما أندَى شمائلَهُ ... وما أرقَّ وما أسخى عطاياهُ!

إذا عَرِيْنا لَبِسْنا مِنْ مطارفِهِ ... وإنْ عَطِشْنا سقانا من مُصَفَّاهُ

وإنْ تَعِبْنا وملَّ الدَّرْبُ مَدَّ لنا ... من ظلِّه فاتّكأْنا في حنايـاهُ

آمن البدويّ بالشعر ضَرْبًا من النُّبُوَّة التي تهدي إلى الحقّ، وتُضَمِّد الجراح، وتُواسي المحزون، ولـمّا كان الشعر وَحْيًا لم يكن يُواتيه كلّ حين، تنقدح الفكرة

(١) ديوانه ١٤٧.

(٢) منارات شعرية ٧.

Generated by CamScanner

في رَوْعِهِ، ثمّ تتدفّق الصور وتتزاحم في مخيلته، حتّى إذا تحرّكت شهوة القول حلّق في سمائه، فلا يأكل إلا نزرًا، ولا ينام إلّا لِمامًا، ولا يشرب إلّا حسوة طائر، فيأتي مولوده القصيدة أبهى ما يكون، وأنضر ما يسرّ، وربّما لا يُواتيه، ويتأبّى عليه يومًا أو أسبوعًا، فإذا رضي عنه إله الشّعر أو شيطانه على وفاق تعبيره، وانسكبت دموعه كانت مطالع القصائد. وقد قال خالد بن عبد الله القسريّ: «إنّ هٰذا الكلام يجيء أحيانًا، ويعسر أحيانًا، وربّما كُوْبِرَ فأبى، وعُولج فنبا، والتّأنّي لمجيئه خيرٌ من التّعاطي لأبيّه، وتَرْكُهُ عند تنكُّرِهِ أفضَلُ مِنْ طلبه عِنْدَ تعذُّره، وقد يختلطُ مِنَ الجريءِ جَنَانُه، وينقطعُ من الذَّرِبِ لسانه، وسأعودُ فأقول».

هٰذه لغة البدويّ حبّ ولوعة وأسًى وخمور وعطور وأنداء وظلال وقُبَل وأيك وشجن ونهد وطُيُوب وطُيُوف وألحان وأقحوان ولؤلؤ ومتارف، ألفاظ اغترفها مِنْ حوض الطّبيعة، ومِنْ محفوظه الزّاخر، ومِنِ اقتدارٍ على الاشتقاق والتوليد والمجاز وتراسل الحواسّ، على نحوٍ منقطع النّظير، جعل أشعاره وأبياتًا كثيرة من قصائده سيّارةً على ألسنة رواة الشّعر ومتذوّقيه يستشهدون بها في غير مقام تقدّم لهم الحُجّة الدّامغة والبيان السّاحر الآخذ بمجامع القلب.

وكل قصيدة من قصائده دنيا من النّور، وتستحقّ أنْ تُخَصَّ بدراسة مُفْرَدَة على حيالها، فالبدويّ قمّة من قمم الشّعر العربيّ عَقِمَتْ عبقريّة الشعر أنْ تُنْجِبَ بعدَ المتنبّي غَيْرَهُ.

Generated by CamScanner